الرّجُل وَالدّميَة

قصة بقلم ادريس الخوري

لاول وهلة بدا للطفل أن الجو هنا ليس هو الجو هناك ، ولكن عندما دخل هذه المقهى بالذات بدا له أنها عكس المقاهي الاخرى . كان دخوله لها الان مجرد رغبة عادية فقط ، فكما ان هذه مقهى فكذلك الاخريات . ولم لا ؟ لم تكن الساعة ذاك المساء سوى السابعة والربع، مع ذلك ، فقد كان الليل قد أعلن عن نفسه منذ السادسة والنصف . ان الزمن يتغير ، هذا لا شك فيه . ومنذ انتهاء فصل الصيف كانت مدينتنا تعيش تحت رحمة الارتعاش . لكن الزمن لم يكن يعني ،بالنسبة له ، اي شيء ذي قيمة : فالصيف عالم حار وكثير الشمس من الشروق الى الغروب ، والخريف مجرد اعلان عن تصفية ، هبوب ريح باردة جدا وموت كثير من الارواح الصغيرة . واذا كان الشتاء يعرف باندلاقه على المدينة ، فان الربيع ، هو الاخر ، يهيىء لمجيء عالم أخضر .

كانت المقهى علبة ضيقة ثبتت في زاوية الدرب ، وداخلها كان طفل صغير يعرض دماه القصديرية الملونة . لم يكن هناك اعتقاد جازم باحتمال بيع واحدة من الدمى ، كان البيع الان مسالة حظ فقط، ولم يكن الرجل الواقف ، جنب الفاصل الخشبي ، سوى علامة استفهام غامضة ، ربما سيشتري مني دمية لطفله الصغير ، لطفلته الصغيرة ، ربما سيمنحني على الاقل عطفا لانني لا زلت طفلا ، ربما ، ربما ، ربما، الخ... وفكر الطفل ان اي رجل ، حين يشرب الخمر ، فانه سرعان ما يتغير . انه ينطق عن الهوى ، ومع ذلك فانه يظل مشروعا للسخاء اكثر ، ذلك ما يفعلونه مع اصدقائهم حين ينزوون في أركان المقاهي .

الفاصل الخشبي مشغول ، وعن اليمين واليسار كانت زجاجات البيرة القصيرة الخضراء متناثرة ، دخان السجائر مرتفع فوق المقهى. وكان الرجال الاخرون ، الرواد الاخرون واقفين . وحين وضع الطفل دميته قرب الكاس الصفراء كان قد قرر الانتظار . ماذا ؟ ليس الامر مخيفا ، أنا حر ، ان لحظة قصيرة تمر وينتهي كل شيء ، وهذا الرجل الواقف الان هو مثل الاخرين ،فلا خوف اذن منه ، بالرغم عن انه سكران !

كان الطفل يرنو الى وجه الرجل : انتفاخ مستدير أسمر لكنه حليق . ربما يشرب ، سوف يتكلم أخيرا . ولكن الرجل الواقف لا يبدو انه يريد ان يتكلم من فرط الوقوف منذ مدة كان الكلام يبدو له متعبا للغاية . وقد اكتفى بان اخرج سيجارة الثوبة بلقاء ووضعها ، بكل سخرية ، في فمه المتوثب الشهواني . بقي طويلا يحدق في الطفل. ماذا تريد ؟ واولع سيجارته الطويلة ثم رمى عود الثقاب الاخضر الى أرضية المقهى الضيقة ونفث دخانا أبيض في الهواء . الان كان عليه أن يستريح . ففي المقاهي لا توجد مشاكل . ولكن توجد مشاريع علاقات مع اخرين ، كيفما كان لونهم ، كيفما كان شكلهم . وأخذ الكاس ونظر الى الطفل مرة اخرى . ماذا تريد ؟

الطفل : خذ .

واخذ الدمية ليريها الى الرجل

الطفل : خذ .

الرجل : ماذا ؟

الطفل بسرور : هذه الدمية .

وكان قد بدا يقلبها أمام عيني الرجل الذي ازداد اتكاء على الفاصل الخشبي . أولا أريد أن أعرف ما معنى هذه الدمية ؟ معناها أن تشتريها لطفلك الصغير ، لطفلتك الصغيرة التي تركتها تصدح مع قطتها الجميلة قرب جهاز التلفيزيون . ولقد كان الطفل يحاول أن يبيع دميته ، فالسكارى ليسوا انفسهم عندما يكونون قد ادمنوا ! وتذكر الطفل جولته مساء أمس : عند مدام لويس بعت ثلاث دمى ، وعند « الام » بعت واحدة فقط . وكانوا قد أشفقوا من أجلي عندما علموا بسهولة انني أعيل أمي الفقيرة ، أما الان فان الحظ يريد أن ينتكر لي . ان باستطاعة هذا الرجل مثلا أن يشتري مني ، بيد أن بيع هذه الدمية يكاد يكون مستحيلا ، انهم لم يعودوا يثقون بنا نحن الصغار عندما نريد ان نعترف لهم .

الرجل : كم ؟

الطفل : ست دراهم .

الرجل : اه ... باهظة .

وبدا الرجل يضحك : هل هؤلاء هم الذين يجب أن نشفق من أجلهم ؟ كان بيع الدمية يبدو مشروعا مستحيلا ، وكان حظ الطفل يهرب منه . ان هذا المساء لقذر لانني لم أبع فيه دمية واحدة.وهذه المقهى هي نفسها قذرة . اذا لم ابع دميتي فلاغادر « المدينة » وفي المساء غدا سأعود .

الرجل : أنت تمزح ولا شك . أليس كذلك ؟

الطفل بيقين : لا ، اقسم لك .

الرجل بعنف : لا .. لا تقسم لي .

الطفل : وما تريد ؟

الرجل : بكم الدمية اذن ؟

الطفل بامتعاض : لقد قلت لك .

وظل الرجل يحدق طويلا في الطفل ، وظل الطفل يحدق طويلا في الرجل . مهما يكن من امر فقد قلت له . هل يكون الرجل قد عزم أخيرا على شراء الدمية مني ؟ مستحيل ! ... هم يتهموننا باننا نكذب عليهم لاننا لا زلنا صغارا ، ولكننا مختلفون ، هذا هو الفرق. لقد كانوا مثلنا ، وحتى الان فان اي انسان لا يقول الحقيقة . لعل هذا الرجل يكذب مثلي ، أنا أعلم ذلك جيدا . قالت لي أمي ، ذلك المساء ، يجب أن تكذب يا بني لكي تبيع ، وها أنا الان أنفذ وصيتها بكل ما أملك من حيلة .

الرجل : بكم تشتري دماك من السوق ؟

الطفل وقد طعن في الصميم : لا تسل عن ذلك ، ان ذلك متعب، في السوق لا يرحموننا .

الرجل : واذن ؟

الطفل : هل تريد أن تشتري أم لا ؟ لقد تعبت من الوقوف .

الرجل : وما ذنبي انا ؟

الطفل : انك تسخر بي .

الرجل : انه مجرد سؤال فقط .

وصب في الكاس ما تبقى من زجاجة البيرة القصيرة . وقال الرجل في نفسه : الاطفال علكة تلصق بنا . صحيح ؟ أريد هذه الدمية، لا أريد هذه الدمية . وأنا نفسي لا أريد مزيدا من الاطفال الذين يريدون الدمى ، هذا فقط لاعرف أين يذهب راتبي الشهري . يجب أن أطلب زجاجة أخرى ، انه مطلب ضروري بالنسبة لي . فمنذ مدة لم أشرب.

اسماك المياه الباردة

وحيدة تخلفت من موكب الاسماك
اشتدت الحرارة
وعادت الاسماك للشمال
للسواحل الباردة الحجارة
وحيدة تخلفت عارية نقية
غريبة نقيــة
تبحث في السواحل الدافئة الرمال
عن ملجأ ، اغنية شعبية
هام بها صياد .

ومرت الايام والليال
وازدادت الرمال
سخونة ، وهذه النقية
تبحث بين العشب ما تزال
عن صاحب الاغنية .

لم تتحمل غربة السواحل
لم تتحمل غربة الوجوه
لم تتحمل غربة الحديث
لم تتحمل غربة المياه
لم تجــد الاغنية .

كسيرة عادت لساحل الشمال
مسافة طويلة طويلة
وحيدة ، حزينة ، عارية ، خجولة
غريبة نقيــة .

يسرى خميس

ومساء أمس قد وضعت زوجتي بعد مخاض عنيف . هل يجب علي أن أفرح ؟ لم أعد أحتمل أن يزداد عندي طفل جديد ، كفـــى الاربعة الموجودون . ان مجيء انسان صغير الى العالم هو مجيء المشاكل : مرض يومي ، سعال طويل في الليل ، مرحلة تكوين الاسنان المتعبة ، وأيضا مرض « بو مصرون » ، زيارة الطبيب أثناء كل فترة ، مـــرض الام المفاجيء ، اه ، يجب الاحتراس من البرد الخ... لاشرب أيضا . أنا لا أريد أن أشتري هذه الدمية ، فطفلتي الصغيرة ، التي تركتها تمرح في الغرفة ، لها دمية اخرى حية ، انهـــا قطة صغيرة جميلـة ، مخلوق أليف ذو ذيل أسود وشعر رمادي ، لكن الدمية ليست هـي القطة . يجب أن أشتريها لطفلتي كي تكتشف في جمودها فوتهـــا الناشئة .

ورفع الدمية الى عينيه : سواء كانت جميلة أم قبيحة فللهـم ان تكون سليمة . وفكر : « لقد تعودوا أن يبيعوا لنا دمى مزيفة » ؟

الرجل : درهمان
الطفل : لا
الرجل : ثلاث دراهم
الطفل : لا
الرجل : أربعة دراهم
الطفل : لا
الرجل : خذ دميتك اذن .

وطلب بيرة أخرى وأخذ الطفل دميته وبدأ يتجول داخل المقهى . ان بيع هذه الدمية يكاد يكون مشروعا مستحيلا .

***

قال مارسيل : بكم هذه الدمية ؟
قال صالح : عشرة دراهم .
قال مارسيل : اه ـ انك ترتفع بالثمن
قال صالح : كم تريد أن تدفع ؟
قال مارسيل : ثمانية
قال صالح : لا .

وقال الرجال الواقفون : انك لا تريد ان تبيع دميتك ، انـــت سيىء الحظ .

واجاب صالح بعناد : انا اعرف ماذا افعل ؟

وانتهى مارسيل من شرب كأسه وخرج : الطفل لا يريد أن يبيع دميته . الامر اذن سواء . لقد أردت الدمية لطفلتي الصغيرة جانيت، ولكنه لم يرد ، الامر سواء .

وافتقد صالح مارسيل وسط المقهى ، وسأل عنه الرواد فأجابوه بجفاء بأنه قد خرج، أنت الذي لم ترد أن تبيع دميتك ، جاءك الحظ فطردته بسرعة . لماذا ؟ لقد صدق الرجال الواقفون ، أنت سيىء الحظ!

وخرج صالح يجري مهرولا وفي يده اليمنى دميته : أين مارسيل ؟ هل اختفى ؟ أريد أن أجد مارسيل ليأخذ الدمية لطفلته الصغيرة . ومن بعيد كان مارسيل يبدو قصيرا ، يتهادى محاذيا بناية البنك الضخمة ويداه في جيبي معطفه ، وكان صالح قد تبعه يجري .

صالح : اذن هات ما قلت لي يا مارسيل .
مارسيل : لقد انتهى كل شيء . أنت لم تقبل في البداية .
صالح : لقد قبلت الان .
مارسيل : أنا لا أقبل الان . الى غد .

وذهب مارسيل وبقي صالح يتبعه بنظراته الحزينة . لقد ضيعت الفرصة ، من يتحمل فشلي هذه الليلة ؟ وعاد الى المقهى حيث تتـرك ما تبقى من دماه فوق احدى الطاولات . انا الذي اتحمل مسؤولية عدد بيع الدمية ، لكن ما يزال هناك امل ، ساعود الى الرجل لكي تأخـــذ الدمية . ودخل المقهى فاشلا ، وكان الرجل ما يزال واقفا يشرب البيرة.

الرجال كلهم : اذن ماذا فعلت ؟
الطفل : لا شيء . لم يرد مارسيل الدمية .
الرجال : انت ضيعت فرصتك ، انت سيىء الحظ .
الطفل : اوف .. لا شيء يهم .
الرجال : خسارة ..!
الطفل للرجل : خذ الدمية اذن .
الرجل : لم اعد بحاجة اليها .
الطفل : انها جميلة ، انظر
الرجل : لا .

الطفل بغضب واضح : ليكن . بيت دماي طماطم متى تتعفن . غدا سأبيعها كلها .

الرجل : في صالحك .

وخرج صالح بدماه وهو مهزوء : ان العالم ضدي .

الدار البيضاء

ادريس الفوري